ضرورية تثبت ان الفنان الصادق يسبق اطروحات مجتمعه، لما يحمله من نفس حساسة تخترق آفاق المستقبل الذي تنم عنه حركة المجتمع، او الضرورات التي يجب تحققها لانماء هذه الحركة تسير نحو طريق يهدف الى فهم الواقع، لهدم سلبياته وصولاً الى آفاق جديدة تحمل الخلاص المنشود. وموت البطل الضحية في هذه الرواية، كما بدا في موت الرجال الثلاثة، انما يعلن موت افكار مرحلة ورموزها، وقد كان دور غسان، كفنان يبحث عن تطويع الواقع فنياً وتوجيهه حسب رؤاه الخاصة، يكمن في التساؤل الاخير الذي جاء على لسان ابي الخيزران: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟». واكتفاء غسان ــ في هذه الرواية ــ بطرح التساؤل، كان منطقياً بالنسبة لواقع حركة الشعب الفلسطيني، الا انه تساؤل يحمل اجابته؛ فهو اهابة بالشعب ان يكف عن استقبال الموت، قانعاً ساكتاً، كي يكون مصيره جثة ملقاة بجوار اكوام الزبالة. وهذا التساؤل يحمل في طياته نبوءة كانت تتفاعل داخل الكيان النفسي الفلسطيني، وسوف تجد تجسيداتها الفنية في اعمال غسان اللاحقة ــ كما عاشها الواقع الحي ــ بواقعية فنية جعلت الواقع والفن شيئاً واحداً(٣٠).

لقد كان تساؤل أبي الخيزران: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟»، ضرورياً، كي يعطي بعض المعاني لموتهم المجاني البشع، لان موتهم هذا، سيكون، من خلال الاجابة على هذا التساؤل، حافزاً لتطور في سلوك الشخوص ومواقفهم؛ يواكب التفاعلات الحادثة في المجتمع الفلسطيني، حيث بدأت افكار جديدة في اخذ تجسيدها العملي على سطح الواقع، مقدمة شخصيات جديدة (ابطالاً) يختلفون عن النمط السابق.

٢ ــ البطل المقاوم

لقد شهد عام ١٩٦٣ تحولاً جذرياً في الوضع الفلسطيني، فقد تم، الى حد كبير، تجاوز الاوضاع الفردية الحياتية التي كانت تكبل حركة الفرد والمجتمع، وبدأت الطلائع السياسية تطرح تساؤلاً جدياً: الى متى يستمر هذا السكون والركود في وضع القضية؛ وهل تستمر، كما هي، قضية لاجئين بحاجة الى صدقات شعوب العالم من خلال ما سمّي «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين»؟. ولقد بدأت هذه الطلائع، من مناطق حدودية مع الوطن المحتل، تقوم بعمليات استطلاع لاهداف العدو وتجمعاته العسكرية، محاولة تنظيم خلايا فدائية لهذا الغرض. وفي عام ١٩٦٤، شهد المجتمع الفلسطيني بلورة كيانية واضحة، من خلال تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وجعل مدينة «القدس» الذكر الرئيسي لها. كما شهدت هذه الفترة انتصار العديد من الثورات الوطنية، خاصة في الجزائر وكوبا، مما حدا بالطلائع الوطنية الفلسطينية، الى الوصول الى قناعة بان الوطن لايحرره الا ابناؤه، وان عليهم ان يكونوا طليعة مقاومة مقاتلة تهيب بالشعب العربي، في ساحاته كافة، «بالتمترس» وراءها. وقد كان انطلاق الثورة الفلسطينية، في يناير ١٩٦٥، حدثاً بالغ الاهمية في مسيرة الشعب الفلسطيني، فلأول مرة تأخذ القضية بعدها الوطني التحرري، فلم تعد قضية لاجئين، انما قضية تحرر وطني ديمقراطي، تحمل البندقية كاستراتيجية، التي تطمح الى الوصول إلى هدف وطني، يؤيدها في ذلك غالبية شعوب العالم، ولكل الحركات التحررية الثورية المنتصرة، والتي ما تزال تقاوم.

وقد سبقت هذا التاريخ (١٩٦٥) محاولات نضالية مسلحة، شهدها قطاع غزة، بين